الباب الثالث

أنواع القراءة

الفصل الأول: القراءة بالعقل.

الفصل الثاني: القراءة للتغيير.

الفصل الثالث: القراءة العليلة.

الفصل الرابع: القراءة التحقيقية.

الفصل الخامس: القراءة لألوان الأقلام.

الفصل الأول

القراءة بالعقل

لكي أقرأ، لا بُدَّ لي من استخدام قوة العقل، التي بها يكون الإدراك والتمييز، وأقف بالنتيجة لِعَقْل التعقل، وليس الطبع، بعد تطبيق المعايير العلمية؛ ليُولد التجاذب والنفور من التفكير خالص التِّبْر.

والأصل في طلب العلم المُباحثة، فالعقل والعلم سِيّان، ولا ينفع السماع دُون أن ينطبع.

ومن لا يتحكم بعقله على علمه يجني على ذاته.

والذي يملك سراج العقل، يُضيء له الحاضر، وتحيا به رُوحه، ثُم يُحيل الحالة العصرية إلى حالة فِكرية، وهو يحصد زرعا كريما، يُوهِبه الثراء، بعناية التدبر، في عُمق الجَمال، لَمّا يستفيض منه العِلمَ.

إن جوارحنا لها مَلَكات، تعمل على أن نُدرك بها ما حولنا، وليست مُكلفة بإدراك الغيبيات، وإن آمنا بها كُلًّا أو جُزْءً أو صِفَةً، مع اختلاف القُدرات في البحث عن أدلتها، وأثرها، وظُهورها، أو الانتفاع منها، أو حقيقة وُجُودها.

وحقيقة صمت القارئ تفكر في القلب يصنع الحكمة، وإدمانه السكوت غاية منهوم العلم؛ ليكون جلبابه السكينة والوقار، وهو السائح بين

شقشقات، تـخترق الزمان، بكينونـتها الـحياة.

يـجذبه عُنوان، يطوي تحت أعطافـه لآلئـا، تـزين عِـقْدَ الـحُـرُوف الـمُـنَـضَّد، على جيد صـفحات البهاء، وجواهر الـمعاني الـجميلة تُشَرْنَق في اللُّب؛ لِـتَحصد الفهم.

ولَـمّـا يشع الفكـر كالــمِشكاة؛ لِـيَــهدي رَحيـق الوَرد وشَذى النور وبَلسم الطيب وشَمس الأفـكار، يُلْهِمُ حُسْنَ الاختيار، والـتَّجرد، والنَّـظر من زوايـا مُـتعددة.

الفصل الثاني
القراءة للتغيير

في حدود الزمان والـمكان، نُـبْصـر حُرُوفا تسـتجر الدموع، وأُخرى ترسم الابتسامة بوجه بائس.

وما بين هـذه وتلـك يحصـد الـحُكمـاء الأمـل، وتـزرع كلمـات النُّـور حيـاةً في العُـقُول، فـفي أصدافها معاني الـحكمة والـجمـال.

تفعم منها الـقُـلُوب بالـحب، بـالقراءة، والـتي هي جوهرة تاج اللبيب.

إن إنسان اليوم، والعقل البشري، والعِلـم، قَـرروا

جميعا، أننا نحتاج لـملايين الكتب من أجل تقـويم السُّلوك، والـتـغـيـير نحو الاستقامة في الفكر.

ولَـمّـا نقرأ، ويُلهِمُنا الإبداع، نجمع مـا تبعـثر مـن ذواتنا؛ لتدور أفلاكنا بنظـام حـول قطـب العقـل، والذي معدنه القلب.

والنَّـظْم الـحَـسن، إشراق ينـشر شُـعاعه، كمـاء عذب زلال.

وغزارة السيل الكِتابي إنمـا يُصْنَع للقِراءة، ورُبَّمـا لا نجد الوقت الذي يستوعب الكثير منه، للاطلاع عليه، فَـنَـقْرعُ بالقَلـب؛ لنكفـل الأجـمل سَـبْكا ومعنى، ونودعه خزائن الأفـئدة؛ ليعلو بنا منارا.

ونختزل الحكمة؛ لنلتهمها من ظلال السُّطُور الثرية بالنقاء، ونرتشف البراعة والتألق، مما هو جدير أن يُقرأ، مع مادة النقد الهادف للتقويم السليم، وليس للنقد نهاية.

لقد تناثرت الأفكار كالدرر بين حروف شَعَّت بالنور، وتُراث الفكر وصوت الروح وحبر العقل نسجوا المشاعر، فصدح الهديل بما حاكت الذكريات.

وأضحى الإقدام لِدَعْوة العُقُول للعمل تَقَدُّم نحو التغيير.

القراءة صمت في الظاهر، وصُراخات في الأعماق، بين ألم وأمل، وشعار للتغيير، لمن شاء الحياة.

الفصل الثالث

القراءة العليلة

الكثير لا يقرأ الـمقدمات، ولا ينتبه للهوامش، ويكون الـمتن لـهوه الشاغل.

الـحروف كالـمقصلة تفصل بـين الواقـع والظـل، برزخ بين العقـل والبـلادة، تسـقط مـن حناياها رؤوس الأفكار.

وتـتـقمص بعض الوجـوه وجوهـا أخـرى، وتـتزين الذئاب بها لتصبح أسودا.

واللبيـب الفـارس الذي يصـول بـين سراياهـا؛

ليرتشف الـمعاني التي لا يشوبها إشعاع الســرطنة للثقافات، ويقرأ بين السُّطُور ما تساقط منها، تلـك التي كالقُـرْط للفتاة، تناثرت من دواة، امتزجت بها ألوان الساسة، مع نُخالة أنياب، ومَـخالبٍ عليها دَمٌ عَبيطٌ.

إنهم كتبوا لنا الكثـير مـن النصـوص، في الكتـب، والصحف، وأماكن كثيرة لا تُـعَد، بحـبر الغـدر، والــحيلة، والــمكر، واغتـالوا عُقولَنـا، وأسَــرُوا أرواحنا، فتكللت قُلوبَنا بالـبُـؤْس، وعلـت صُـفْرة الوجوه بالكآبة، لَـمّـا تَـفَـتَّــتَت أكبادُنـا، أبناؤُنـا، بين حُـرِّيَّـة ينشـدُونها، لعقوهـا مسـمومة، وبـين فِكْرٍ أنتجـه الــمُخرجون، يُميـت الـروح، بِجَـوْفِ جَسَدٍ حي؛ لِيرتــمي مِـن شـاهِقٍ، فكلاهمــا سِـيّان حياته وموته.

قَتَلَةٌ للأفكار، جَلّادون للوقت، سَجّانون للأقلام النابضة، يَغتالون العُقول، ويحرقون الحب، وما بين الغلاف كلمات ميتة، لا يأنس بينها قارئ، وسُطور تنتحر من سطوة السائس، وحُروف تنتحب لَوَّثها الآثمون.

وبواسطة البرامج المكتبية نجد الكثير من الذين تَسَمّوا بكلمة باحث أو مؤلف لا يفقهون الكتب وما تحوي، إذ يستغنون بالبحث الإلكتروني لبلوغ الغايات، دون رعاية أصولها، وهذا داء العصر، والعصرنة.

والمكتبات العامة بين فقرها، وبين رواد يبحثون عن السكينة، تبقى رفوفها جميلة، فلا تكاد تلمسها الأيادي.

وفي بعض البلاد الفقيرة، أو التي تكون وليدة الحروب والمحن، تكون هذه المكتبات مأوى للطلبة الذين لا يجدون ظِلا يُراجعون فيه مَوادهم، من أجل الدراسة المجردة من الموضوعية، والتي يصنعوا منها منهجا لإرهاق طالب العلم.

إن التاريخ زَيَّفَ القراءة اللامعة وَغَبَّرها؛ ليعشو القارئ بين سُطور الزمن، وكثير ما قرأ الآباء ليعلموا، فنحصد ما غرسوا، من نتائج أفكارهم.

ولم نجد مَن يسعى ليتعلم القراءة، لأنه مغبون من نفسه لنفسه، ساوى أمسه بيومه، ويومه كغد، لا تختلف الألوان، والأفكار قاتمة، وحين تسقط الأقنعة يُقلّب أوراق الندم، يوم لا تنفع الندامة.

فمن يُـحدّد صلاحيـة الكلمة؟

ومن يُـقـرّر ما يصلح للقراءة؟

وهل يُمنع طالبي الشُّهرة من شراء الكلمـات؟

ومتى يُـنْـصَف القارئ بمـا يغبنـه الكاتب، ويُغـرّر به؟

وما هي القواعد للطباعة العلمية؟

ومن يـحفظ قداسة الـحروف الـتي صـيغت بهـا أجـمل الـرسالات الإلـهية؟ لأنها ذات الـحروف يزرعون فيها الشوك لِـتُـؤْلـم.

الفصل الرابع
القراءة التّحقيقيّة

القراءة تـحصيل، يستلزم الـرؤية، مـع الــحواس الـمقومات لـها، فمن لا يُدقق بمـا يقـرأ كالأعـمى لا ينتفع من الشمس.

وأنت تقرأ سـتقف على نُصـوص، تُــشابه غيرهـا، ولكنهـا تـأليف لآخـرين! جـوهر واحـد، وألفـاظ أخــرى، تضــم قوالبهــا ذات الــــمعاني، تتحــد في الفكرة، وتـختلف ثيابها التي تُعرض فيها.

وهذه مرتبة من العلم الناتج بالتحصـيل، يكـون

فيها الطُلّاب ذو اتجاه واحد، ورُؤية مُوحّدة لِما ينظرون إليه، من وحدة الدلائل، والقرائن، والإحاطة.

ويختلف بعضهم عن الآخر بالتعبير عنها، على حسب مفردات التحليل التي يقتنيها، وربّما يكون التشابه عَرْضاً لطول الفكرة، بصياغة مُختلفة، يجد فيها الكاتب مَذاقا لدى القارئ، غايته منها قُوت العُقول.

وَلَمَّا نُدْخِل الكلمات التي في صفحاتِ كَثيرٍ من الكُتب في مُختبرات المُحقّق، نقف بذهول على الكم الهائل لليرقات التي تحمل الموت، وتَتَّخذ من عُقولنا مساحات؛ ليقوم الحاكم والكاتب، مع الناشر، بتجربتها علينا.

وكثير من الأوراق تنتثر كأوراق الخريف، وتسقط معها الأحلام، ويخون القارئ حِبْرَ الكُتّاب، وتبقى عُيون مُعلقة برُفات حُروف، تشهد بالحق حينما يرفع القلم دعوى احتيال على الكاتب، أمام محكمة الضمير.

إن كثيرا من الوَرّاقين كانوا يبيعون كُتُباً، يجمعون مُتونها مِمَّن يُصَحِّف عندهم أسراره، وعُلومه التي وصل إليها، بعدما ذاب فُؤاده، حتى أبصر مُناه، ونال الرجاء.

وكم من كِتاب عثرت على اسم كاتبه الحقيقي، وليس ما طُبع على وجهه.

ونصوص وجدتها قد نقشها كاتب في صفحاته،

دُون أن يُشير إلى صاحبها الذي صاغ جواهرها، وقام بسرقتها من عبقري تقدم عليه ونسج أفكاره فيها.

والكثير يقرأ لكاتب يُمجّد قتلة آبائهم، ومَن أباد عُنصر الإنسان، وبني جنسه، وهم في وَهْمِ البَسالة سابحون.

ويستطيع القارئ المُحقّق من المُقدّمة أن يستكشف مُحتوى الكتاب.

وبالقراءة لمتن المادّة وأسلوب الرّصف يُمَيِّز منهما الكاتب، إن كان نسج كلماته من خُلاصة تجاربه وفكره، أو مِمّا قام بسرقته أو اختزاله من آخرين وهبوا طاقاتهم للعلم.

كذلك يتنبّه الـمُتـتبّع الدقيـق النظـر، في نصـوص الكتب الـمعروفة، لا سيمـا الـمراجع القديمة، إذا كان يمتلك، أو وهو يقرأ ويطلع على نسـختين مـن كتاب واحد، أو أكـثر، وقـد علـم فحـواه، يُطـابق بعض النصوص ببعضها؛ ليقف على أمانة الطباعـة في الـــمطابع والدّور والـــمُؤسّسات الـــتي قامـــت بطباعـــة الكتـــاب، فلعلـــه ســـيقف على نُصـــوص مفقودة، وتكون الطبعة ناقصة.

وسيعلم أن دارا قامت بطباعة هذا الكتاب خانـت الأمانة العلمية، وحذفت ما شاءت منـه، ويخســـر القارئ الـــمبتدئ جـرّاء هـذه الطبعـات، بسـبب قراءته لـمعلومات ناقصـة، ومـا أكـثر مـا وقفـت عليه منها.

ولا يغتر القارئ بأن يرى الكتاب مُدقّقا مُصحّحا مُحقّقا، وقد كُتب في مُقدّمته، أو على غلافه أشرف على تحقيق هذا الكتاب لُجنة من الأساتذة أو العُلماء؛ لأنك مِمَّن سيعلم بأن الأخطاء الموجودة في هذا الكتاب تُشَوّه جودة طباعته وإخراجه، عِلما إنّ مِن هذه الكُتب مِمَّا أبدعت فيه الأقلام، من قبل الكاتب والمُحقّق، ولكن الغالب فيها يكون تجاريا.

إن القارئ سوف يَطّلع على ألوان الأقلام، وإخلاصها، وقُوّتها، ومادتها، وحتى أنه سيعرف حبرها ومُكوّناته، خالص، أم فيه شوائب، للكاتب، أم كتبه أجيرا.

وكثير من الكُتب يتم تصنيفها ضمن عُنوانين،

الأول غير صالحة، والثاني ليست لمُؤلّفها، والأغلب فيما تبقى ضمن إطار الجمع والاقتباس.

والقارئ المُحقّق يأنس بالثمار اليافعة من الكُتب المُتخصّصة، أو العلمية، أو التي يكون فيها غزارة ثقافية، ويحصل عليها بعدما يقطع أميالا حتى يصل إليها، وهو في رحلة القراءة.

ووقتما تكون القراءة للإلمام بمعلومات مُتفرّقة عن موضوع، يجب أن يكون القارئ مُحَنَّكا، ليختار كتابا من العُنوان، أو اسم المُؤلّف في اختصاص ذلك الموضوع، أو الفهرس الذي يُوحي إليه كوامن السُّطور، في صفحات الكتاب، أو التصفح السريع؛ ليستنتج

مدى الفائدة التي سوف تتحقق من قراءتـه لـــهذا الكـتاب.

الفصل الخامس
القراءة لألوان الأقلام

أثناء رحلة القراءة، سيتجه مركب القارئ نحو لـون واحد مُـخصّص، يـجتـنيه ويبذل فيـه جُـلّ مـاله ووقته، ولعله يكون مصيبا إذا ما نوى أن يسـتمر بارتقاء مدارج التألّـق من باب تـخصّصه في مجال ما؛ ليكون موسوعة يرجع إليها الباحث، ومُستشارا يُبنى على آراءه من قبل أهل الرأي.

وأغرب ما في صناعة الأسمـاء، يبيع كاتـب قلمـه، لـجاهل لا يفقه علمه، فيكتب اسـمه على إنتاجـه الفكري؛ ليكون مـن الـمشاهير ومُتشـبها بأهـل

العلم، مُـتـقمّصا غيره محلّه، طلبا لقوت.

فاللون الغالب بين رُفـوف الكتـب مُكـرر، صُـوَر يُشير إليها كاتـب اقتـبس ألوانهـا، لتزهـر النفـوس بنظارتها.

وأُخرى وهي الأكثر نَـسَبَها لذاته كاتـب، والأصـل لآخر، تختلف حينها الأسمـاء والنص واحد.

كمـا وَقَفْتُ على مُصنّــفات تباينـت الــخبراء في مُؤلّفها، رغم أنها حـملت أسمـاء، ومعها أخرى مما لــم يقف على جامعها أو ناسخها أحد.

ووضعت في خُزانة عقلي أسمـاء لبعضـها، اقتبسـوا مُـصنّفيها نُصوصا عبثوا فيهـا، كمـــا تعبـث دُودة

الأرض في بيت فيمسي خرابا، تحريف وتصحيف وتدليس وإسقاط.

عبثوا بالأخبار ما كان صحيح منها وحسن وموثّق، وخلطوا، حتى بدا الكثير منها غريبا مُضطربا تستنكره النفوس وتأبى مثاله.

ولَمّا كان التاريخ ميدان المُؤرّخ، فالعلم مُهمّة العالم، فاحذر ما تقرأ، ولا تُصدّق ما تسمع، حتى تجد الدليل، ويكون سيف الحقيقة.

ومن الغرائب والعجائب في الكتب أن سطورها لا تخلو من خيال، أو نسيج لوهم، أو تاريخ مُزيّف لونه أحمر كالدم، أو حُب كالبثور في جلد مريض، أو أبطال لم يحملوا إلّا صفات الغدر والخيانة.

وما بين هذه العناوين تضيع النجوم، بعد أن يكتب المُنتصر على جلد المظلوم دُموعه، لِيُوَسَّم بالعَطوف الحكيم.